

Sola Scripture

الكتاب المقدس فقط

عاطف مهني

المعنى البسيط لهذا المبدأ:

- الطرف التاريخي الذي أدى إلى ظهور هذا المبدأ.
- موقف الكنيسة التقليدية آنذاك من هذا المبدأ.
- المبدأ الإصلاحية وما ترتب عليه من نتائج.
- إقرارات الإيمان الإصلاحية وموقفها من الكتاب المقدس.
- إسهام المصلحين في مبدأ سمو سلطان الكتاب المقدس.
- تحديات ارتبطت بهذا المبدأ الإصلاحية.

مقدمة عامة

لا بد أن نُذكر أنفسنا أن كلمة "Sola" وهي تعني في الأصل وحيد/ فقط/ وحده استُخدمت مع خمسة مبادئ إصلاحية هي النعمة، الكتاب المقدس، المسيح، والإيمان، والمجد لله. ومن الواضح أن المصلحين لم يكونوا بصدد وجود حل وحيد لكل مشاكل وضعفات الكنيسة في العصور الوسطى بدليل أنهم لم يأتوا بـ "Sola" واحدة، ولكنهم كانوا يتعاملون مع العديد من المشاكل. ولعلي بنوع من التبسيط أقول إننا في الـ ٥ "Solus" كأننا نلخص اعتراضات لوثر الخمسة والتسعين في خمسة تحديات، وأن كل "Sola" هي بمثابة حل يوضع مقابل كل تحدٍ.

وحديثنا اليوم سيكون عن المبدأ الإصلاحية "Sola Scripture" الذي يمكن أن نترجمه "الكتاب المقدس وحده" أو "سمو سلطة الكتاب المقدس".

أولاً: سمو سلطة الكتاب المقدس

هذا المبدأ وُضِعَ في مقابل سلطة البابا والإكليروس في التعليم التي وصلت إلى عصمة البابا والمجامع المسكونية فيما يقرونه من قوانين أو إقرارات إيمان، وفي مجمع ورمس Worms سنة ١٥٢١ الذي وقف فيه لوثر مدافعاً عن نفسه أمام المجلس الإمبراطوري، أعلن لوثر بوضوح أنه مستعد أن يعترف بخطئه في اعتراضاته التي قدمها وفي كل ما عمل إذا ثبت خطؤه من الكتاب المقدس أو أفنعه به أحد من خلال تعليم الكتاب المقدس. ولكن لوثر استمر في دفاعه مؤكداً أن كل ما توصل إليه في حركته الإصلاحية محكوم بضميره الذي استنار بتعليم الكلمة المقدسة وعمل الروح القدس. إذن فنحن مع هذا المبدأ أمام الكتاب المقدس الذي يوضع باعتباره سلطة وحيدة معصومة للإيمان والأعمال وبالطبع للتعليم الكنسي، والعائدي في مقابل سلطة البابا والإكليروس.

ثانيًا: الظرف التاريخي الذي أدى إلى ظهور هذا المبدأ

خلفية هامة: في العصور الوسطى التي يتعامل معها تاريخ الكنيسة من القرن الرابع الميلادي (لأسيما مع إعلان قسطنطين المسيحية الديانة الرئيسية للإمبراطورية الرومانية) وحتى القرن السادس عشر (أي ظهور الإصلاح) تطوّر صراع مريّر بين السلطة المدنية متمثلة في الإمبراطور والدولة، والسلطة الروحية متمثلة في البابا والكنيسة. وعندما كانت الدولة أقوى من الكنيسة شهد هذا الصراع تدخلات سافرة من الأباطرة في المجامع المسكونية في أمور لاهوتية عقائدية لم يفهموها لكنهم ساهموا في اضطهاد بعض آباء الكنيسة ودعم آخرين، لدوافع وأجندات وأهداف سياسية أو لجهل شديد. ونجاح فريق من رجال الدين في استقطاب السلطة إلى صفهم ليس بالضرورة بسبب سلامة مواقفهم العقائدية.

وعندما قويت الكنيسة وزاد نفوذها، كان بعض البابوات يتدخلون في شؤون الدولة ويحرمون أباطرة وملوكًا ويهددونهم بعدم غفران خطاياهم، حتى اضطر بعض الملوك لاستجداء العفو والغفران من البابوات، وأحيانًا كان هذا الاستجداء لا يخلو من الذل والمهانة.

لقد شهدت العصور الوسطى للأسف تدهورًا شديدًا في علاقة الكنيسة والمؤمنين بالكتاب المقدس، ربما كان لصراع السلطة الذي شرحناه آنفًا دخل كبير فيه. فقد نجح البابوات في أن يستأثروا بسلطة قراءة الكتاب المقدس وتفسيره وتأسيس العقائد المسيحية منه وقصر ذلك على أنفسهم حتى صارت العصمة في الحكم على الإيمان والأعمال في يد الإكليروس بما يقرونه من عقائد. وهكذا أصبحت هناك عقائد مرتبطة بالاعتراف وغفران الخطايا، وسلطة الكنيسة في الحل والربط، والتحليل والتحرير، وظهرت عقائد مثل عقيدة المطهر وعصمة البابا وغير ذلك.

وإمعانًا في قصر التعامل مع الكتاب المقدس على الإكليروس كان هناك إصرار من كنيسة روما (الغربية) على أن تكون اللغة اللاتينية هي لغة الكتاب المقدس ولغة القداّس أيضًا، والعجيب أن اللغة اللاتينية، اللغة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، هي مجرد ترجمة أعدّها القديس جيروم في القرن الرابع الميلادي من لغتي الكتاب المقدس الأصليتين، وهي العبرية للعهد القديم واليونانية للعهد الجديد، وربما كان الأمر يصبح مبررًا ومقبولًا لو أصر الكهنة على قراءة الكتاب المقدس بلغتيه الأصليتين (العبرية واليونانية)، أما إصرارهم على قراءة الكتاب مترجمًا دون السماح بترجمته للغات أخرى (لغات الشعوب المسيحية المختلفة) يؤكد نيتهم ألا يكون الكتاب المقدس متاحًا لغيرهم. وقد حدّر الإكليروس صراحةً من خطورة أن يحاول العامة قراءة الكتاب المقدس وتفسيره لما يمكن أن يصلوا إليه من مفاهيم خاطئة.

ثالثًا: شرح المبدأ الإصلاحى "Sola Scripture" وما ترتب عليه من نتائج

هنا سأذكر بعض المحطات الهامة في حياة المصلح مارتن لوثر التي أعتقد أنها لعبت دورًا هامًا في تشكيل مبدأ سمو سلطة الكتاب المقدس.

■ من الدور الأكاديمي إلى الرهبنة:

نعلم أن مارتن لوثر قد عمل أستاذًا للفلسفة لوقت قصير في جامعة أرفورت وفي نفس الوقت كان يدرس الحقوق إرضاءً لوالده. ولكن بعد عدة أحداث دراسية ومخاطر وأمراض وتعرّضه لصاعقة أسقطت شجرة بجواره دون أن يموت، قرر مارتن لوثر، الذي كان أصلًا يصارع مخاوف من الموت، والدينونة، والرغبة في إرضاء الله، أن يترك منصبه الرفيع في

الجامعة ويترهين في دير أغسطيني. ويذكر لوثر في إحدى كتاباته أنه لم يفعل ذلك حباً في الرهبنة لكنه أحس أن السماء تدعوه بصورة خاصة: " ... إن دعوة مخيفة من السماء قد وُجِّهَتْ إليّ فلم أصر راهباً رغبةً مني أو مسرّةً فيها ... " وقد حدث ذلك عام ١٥٠٥ وقد أرسل خطاب استقالته للجامعة وكتب خطاباً لوالده يبلغه فيه بقرار الرهبنة.

عاني لوثر وهو في الدير من مرض خطير كاد أن يؤدي بحياته للموت، وقد أرسل له الله راهباً مسناً يدعى ستوبيتز Staupitz للسؤال عنه وكانت فرصته لأن يطرح لوثر بعض مخاوفه من الموت والدينونة على الراهب العجوز الذي ذكّره بما يردده في إقرار الإيمان "أؤمن بمغفرة الخطايا..." وهنا انفتحت عينا لوثر لأول مرة ليفكر في الله ليس فقط كقاض ويسوع المسيح ليس مجرد ديان بل كغافر للخطايا. وربما كانت هذه بداية رحلة لوثر للتوصل إلى اكتشاف التبرير بالإيمان.

■ غفران الخطايا:

بين الإيمان والأعمال: لعل كلمات الراهب ستوبيتز المذكّرة للوثر بأن الله هو غافر الخطايا لم تكن مجرد كلمات مطمئنة ضد ما كان يعانيه من صراع وقلق، لكنها كانت بداية صراع فكري وبحثي في التراث الأغسطيني وحياتة القديس أغسطينوس من جهة، وفي كلمة الله، لاسيما في رسالة رومية من جهة أخرى، وكان لوثر كان على موعد مع نور متزايد فكرياً وروحياً واختبارياً، مع إحساسه المتزايد بخطيئته وعدم استحقاقه، ومع تزايد قناعته أن أعماله لا ترقى إلى إرضاء الله، كانت دراساته وقراءاته تؤكد له أن غفران الخطايا لا يمكن أن يكون في سلطة كاهن، ولا على حساب أعمال وممارسات وطقوس معينة، وبالطبع بدا لوثر أكثر قناعة أن لا يمكن لبشر أن يمنح أو يمنع الغفران أو يربط ويحل مصير إنسان، وأصبحت كل هذه الأمور تتداخل في بوتقة حياته مؤيدة مما يكتشفه من كلمة الله وعمل الروح القدس، مغيرة منظوره للكثير من الأمور مثل الكهنوت، والأسرار المقدسة ودورها في الخلاص، ومغفرة الخطايا. لكن ما يميز خبرة لوثر أنه بدأ يجد أن هناك إجابات واضحة لصراعاته الفكرية واعتراضاته الداخلية على ما لم يكن يعجبه في الحياة المسيحية المعاصرة لأيامه.

■ من الرهبنة إلى الحياة الأكاديمية المرتبطة بالكتاب المقدس:

كان الراهب ستوبيتز عميداً لكلية اللاهوت في فيتمبرج، وعندما قابل الراهب لوثر لم يرى فيه فقط الشاب القلوق الذي يصارع مع مشاكل فكرية وروحية، لكنه لاحظ ما يملكه من ذكاء متوقد وفكر راجح وقدرات دراسية متميزة.

لذلك، وربما رغبة من ستوبيتز في مساعدة الشاب لوثر طلبه أن ينتقل ليكون في دير أغسطيني بالقرب من جامعة فيتمبرج وذلك عام ١٥٠٨، حيث طلب من لوثر أولاً أن يُدرّس فلسفة أرسطو للطلاب في الجامعة، وأن يدرس في الوقت نفسه في كلية اللاهوت مُركّزاً على الدراسات الكتابية.

لقد اجتاز لوثر دراسته اللاهوتية بتفوق، وما هي إلا سنوات حتى عُيّن أستاذاً في نفس الجامعة ثم انتقل للتدريس في أرفورت التي التحق بالدير فيها أولاً. وهكذا كانت هذه محطة أخرى قربت لوثر جداً من الكتاب المقدس من خلال دراسته ثم تدريسه له.

رابعًا: نتائج مترتبة على هذا المبدأ

- (١) حق كل إنسان أن يقرأ الكتاب المقدس بلغته التي يفهمها.
- (٢) أن فهم الكتاب المقدس وتفسيره ليس مقصورًا على الإكليروس بل يمكن لكل إنسان أن يستتير ويفهم الكتاب المقدس بعمل الروح القدس حتى أن لوثر قال مقولته الشهيرة في دفاعه عن نفسه أما المجلس الإمبراطوري في ورمس: "إن الله الذي جعل حمارًا يتكلم موبخًا به النبي بلعام، قادر أن يتكلم على لسان إنسان تقي (يقصد نفسه) لكي يوبخ البابا."
- (٣) دفع هذا الاعتقاد لوثر إلى العمل على ترجمة الكتاب المقدس من اللغات الأصلية إلى الألمانية وبدأ بمشروع ترجمة العهد الجديد من اليونانية ثم عكف هو ومجموعة أصدقاء إلى ترجمة العهد القديم كله بالعبرانية، الأمر الذي كان شاقًا للغاية وكانت بعض الجمل تستعصي عليه وعلى أصدقائه بالأيام.
- (٤) فتحت ترجمة لوثر الكتاب المقدس للألمانية الباب أمام المئات من الترجمات إلى كافة اللغات واللهجات، لعل أشهرها كانت ترجمة King James الإنجليزية (١٦١١)، وتأسست دور للكتاب المقدس وهيئات متخصصة لترجمته مثل ويكيليف، قادت حركة ترجمة الكتاب إلى كافة لغات ولهجات العالم.
- (٥) كتب لوثر كتابًا للنبل شرح فيه موقفه من البابوية واعتراضاته المختلفة وركز فيه على تمسكه بحق كل إنسان في قراءة وتفسير الكتاب المقدس، وتلا ذلك كتابة كتاب لأساسيات العقيدة ثم العديد من التفسيرات للكتاب المقدس، ثم كتاب للعظات القائمة على تعليم الكتاب المقدس قدمت نموذجًا رائعًا للكثير من الإكليروس والرهبان عن كيفية تفسير وتعليم الكتاب المقدس، كما كان للوثر أيضًا إسهام مميز في كتابة العديد من الترانيم أيضًا التي أنثرت فيما بعد في العبادة وتغيير الشكل النمطي للقداس.
- (٦) من هذه الأمور كلها تأسس مبدأ "Sola Scriptura" أي سمو سلطة الكتاب المقدس، الأمر الذي بنى عليه وأيده وعمقه باقي المصلحين مثل كلفن وزوينجلي و هس وغيرهم الذي يعطي للكتاب المقدس وحده أن يكون هو القانون الوحيد المعصوم للإيمان المسيحي والأعمال والسلوك. وعليه لم يعد للتقليد أو تفسيرات الإكليروس أو البابوات أو ما يقرونه من عقائد سلطة مكافئة أبدًا للكتاب المقدس، وأصبحت قيمة التقليد وباقي الأمور مستمدة من توافقها مع الكتاب المقدس وليس العكس، فهي لها قيمة بالطبع لأنها تشمل تاريخ فهم المؤمنين والكنيسة على مر العصور لكلمة الله لكنها لا يمكن أن تقف بذاتها كمصدر مستقل للإيمان والأعمال موازٍ أو مقارب للكتاب المقدس.
- (٧) واضح أن لوثر وكل المصلحين كان همهم مواجهة الأخطار التي ترتبت على تأسيس سلطة التعليم والعقيدة على آراء بشر سواء كانت تعاليم البابا أو الإكليروس أو حتى المجامع المسكونية أو التقليد. فكان همهم (الذي لخصته إقرارات الإيمان المعاصرة للإصلاح) كما سنرى الآن أن يكون الكتاب المقدس، كلمة الله هو المصدر الوحيد المعصوم للإيمان. فالعصمة التي تناولها هي عصمة السلطة، ولكنهم لم يكونوا مشغولين أو معنيين بدراسة طبيعة الوحي والكلام عن العصمة لفظًا ومعنى أو معنى فقط ... إلخ.

خامساً: الكتاب المقدس في إقرارات إيمان عصر الإصلاح

١. اعتراف الإيمان في جنيفا عام ١٥٣٦ م

نؤكد أولاً أننا نرغب في اتباع الكتاب المقدس وحده قاعدة للإيمان والتقوى دون أن نخطط معها أي شيء آخر من بدع البشر غير المتفق عليها مع كلمة الله. ولا نقبل لإدارتنا الروحية أي تعليم لا تبلغنا إياه هذه الكلمة دون زيادة أو نقصان، بحسب وصية الرب.

٢. اعتراف الإيمان للكنيسة المصلحة في فرنسا عام ١٥٥٩ م

■ كشفُ الله لذاته:
هذا الإله يكشف ذاته للبشر: أولاً، في أعماله وفي خلقه إياهم وأيضاً في حفظهم وضبطهم، ثانياً، وبشكل أوضح، في كلمته التي أعلنها في البدء في أقوال ثم دُونَتْ في كتب ندعوها الأسفار المقدسة.

■ الكتاب المقدس:
هذه الأسفار المقدسة تُولف في مجملها الكتب القانونية للعهد القديم والجديد كما يلي: أسفار موسى الخمسة، وباقي أسفار العهد القديم، وأسفار العهد الجديد، ومجملها ٦٦ سفرًا.

■ الكتاب المقدس دستور الإيمان:
نعلم بأن هذه الأسفار القانونية وهي دستور إيماننا الأكيد، ليس بسبب إجماع الكنيسة على قبولها بالدرجة الأولى بل بسبب شهادة الروح القدس الداخلية التي تمكننا من تمييز الأسفار المقدسة عن كتب كنسية أخرى التي وإن كانت مفيدة فإننا لا نستطيع أن نبني عليها مبادئ الإيمان.

■ سلطة الكتاب المقدس:
نؤمن بأن الكلمة الموجودة في هذه الأسفار منبثقة من الله ومنه وحده ينبع سلطانها، لا من البشر. وبقدر ما هي قاعدة كل حق إذ تحتوي على كل ما هو ضروري لخدمة الله ولخلاصنا لا يحق لأي إنسان، ولا للملائكة، أن يضيف عليها أو يزيل منها أو يغيرها. وبالتالي لا يحق لأي سلطة سواء قامت على أساس الأقدمية أو العرف أو العدد أو الحكمة البشرية أو أحكام أو إعلانات أو مراسيم أو قرارات أو مجامع أو رؤى أو معجزات أن تتعارض مع هذه الأسفار المقدسة. بل على العكس، هذه الأسفار هي المرجع الأساسي لفحص كل الأشياء وضبطها وإصلاحها. ولذلك، نحن نعترف بثلاثة قوانين للإيمان: قانون إيمان الرسل وقانون الإيمان النيقاوي (القسطنطيني) وقانون الإيمان الأثناسي لكونها تطابق كلمة الله.

٣. اعتراف الإيمان الاسكتلندي عام ١٥٦٠ م

سلطة الكتاب المقدس: وكما نؤمن ونعترف بأن كتاب الله كافٍ لتعليم رَجُلِ الله وجعله كاملاً، كذلك نؤكد ونصرح بأن سلطة الكتاب ي من الله ولا تعتمد على بشر أو ملائكة. لذا، فإننا نؤكد أن القائلين بأن لا سلطة للكتاب إلا تلك المعطاة له من الكنيسة مجدفون على الله

ومضرون للكنيسة الحقبة التي تسمع صوت قرينها وتطيع راعيها دومًا، ولكنه لا تدعي بأنها سيده فوق صوت سيدها.

سادسًا: تحديات ارتبطت بهذا المبدأ الإصلاحى على الرغم من الفوائد والمنافع العظيمة التي ترتبت على المبدأ الإصلاحى " Sola Scriptura"، هناك تحديات نتجت ولا تزال تنتج عنه ما لم تنتبه لها الكنائس المصلحة.

(١) إهمال التقليد والنظرة الدونية له

بالطبع لم يكن هذا قصد الإصلاح على الإطلاق، بل كان الغرض ألا يتساوى تعليم البشر أو فهمهم للكتاب المقدس بالكتاب نفسه. ولكن الكنائس المصلحة تتعامل أحيانًا بحساسية مفرطة مع التقليد، مع أن الكتاب المقدس نفسه الذي يسجل حياة السيد المسيح والكنيسة لم يُكتب في حياة المسيح بل بعد ذلك بعدة عقود نتيجة حفظ تعاليم المسيح بأمانة من خلال التقليد الشفهي. كما أن التقليد يشمل تاريخ شعب الله وكنيسة المسيح وصراعهم في فهم وتفسير الكلمة المقدسة وهو أمر هام. إذن فالأصح أن نحترم التقليد ونقرأه وندرسه ونستفيد من الإصلاح في امتحان التقليد في ضوء الكتاب المقدس وليس العكس.

(٢) حرية التفسير لغير المتخصصين وما تقود إليه أحيانًا من فوضى تفسيرية

مرة أخرى، إن أعظم عطية نقدمها للعالم سواء على مستوى البشارة والكرامة أو التعليم، أن نتيح الكتاب المقدس لكل إنسان ليقرأه ويعرف طريق الخلاص منه وينمو في النعمة من خلاله.

لكن الكنيسة لا بد أن تقدم المعونة من المتخصصين في التفسير والعقيدة واللاهوت لكي تحمي غير المتخصصين من الفهم الخاطئ، كما يجب على الكنيسة أن تراعي بالأحرى ألا يترك منبر التعليم لغير الدارسين أو الفاهمين كما نرى أحيانًا في الكنائس الفقيرة، حيث تنتشر بدع تعليمية وتقدم مفاهيم خاطئة عن المسيح، والخلاص، والقداسة، والدور الإنساني، والدور الإلهي.

(٣) انقسام الكنيسة بسبب الموقف من سلطة الكتاب

لا بد أن الكتاب المقدس يقربنا أكثر من كونه يبعدنا. والواقع أن اتباع المبادئ التفسيرية السليمة يقود إلى استنتاجات سليمة ولاهوت صحيح، وهو ما لا بد أنه يقربنا من بعضنا البعض.

(٤) الجدل حول قيمة الكتاب المقدس ومكانته

ننساق أحيانًا لجدل عقيم حول طبيعة الوحي، والرغبة في الدفاع المستميت عن صحة وسلامة كل لفظ في الكتاب المقدس، ظنًا منا أننا بهذا نطبق المبدأ الإصلاحى " Sola Scriptura".

لكننا في الواقع لا بد أن نذكر أن هذا المبدأ يركز على سلطة الكلمة المقدسة للإيمان والأعمال، وبالتالي فإن أفضل تطبيق لهذا المبدأ الكتابي أن نوفر كل فرصة أن يكون الكتاب المقدس مفهومًا (بالتجمات والتفاسير) ومعلمًا ومطاعًا من المؤمنين، لا أن يكون موضع جدل فلسفي أو أكاديمي فقط.

المراجع:

- الخصري، حنا جرجس. المصلح مارتن لوثر حياته وتعاليمه: بحث تاريخي عقائدي لاهوتي. القاهرة: دار الثقافة، 1983.
- جون كالفن: دراسات تاريخية عقائدية. القاهرة: دار الثقافة، 1988.
- ديورانت، ول. قضية الحضارة الإصلاح الديني بداية عصر العقل، ج. 14. ترجمة فؤاد أندراوس ومحمد أبو درة. القاهرة: مكتبة الأسرة، 2001.
- صبرا، جورج. نؤمن ونعترف: كتاب العقائد للكنائس الإنجيلية المصلحة. بيروت: كلية اللاهوت للشرق الأدنى، 1990.
- فارس، فايز. أضواء على الإصلاح الإنجيلي. القاهرة: دار الثقافة، 1984.
- لوريمر، جون. تاريخ الكنيسة، ج. 4. القاهرة: دار الثقافة، 1990.
- المركز اللوثري. المصلح الإنجيلي مارتن لوثر. بيروت: المركز اللوثري، 2007.
- ميرل، دوبينيا. تاريخ الإصلاح في القرن السادس عشر. ترجمة إبراهيم الحوراني. بيروت: مكتبة المشعل، 1982.
- هاري، إبيرتس. مصلح في المنفى: جونكلفن موجز عن حياته ومبادئه. ترجمة وليم وهبة. القاهرة: دار الثقافة، 1982.
- Boehmer, Heinrich. *Martin Luther: Road to Reformation*. Cleveland: Meridan Books, 1967.
- Janz, Denis. *The Westminster Handbook to Martin Luther*. Louisville, Ky: Westminster John Knox Press, 2010.
- Luther, Martin, and Theodore G. Tappert. *Selected Writings of Martin Luther*. Philadelphia: Fortress Press, 1967.

د. جندي عميد كلية اللاهوت الإنجيلية - وأستاذ العهد الجديد